الثورة العربية والفكر العربي

بقلم احمد عباس صالح

يخيل لي انه من الافضل ـ قبل كل شيء ـ حين ننظر الى الحركة الفدائية الفلسطينية ، أن ننظر اليها في ذاتها ، أعني ألا نحاول اكتشاف دوافعها من الخارج ، سواء كانت فكرية أو اجتماعية ، أو سياسية بأي معنى . وهذه الفكرة تخطر على الذهن اذ يحاول الانسان أن يتأمل تلك الانفجارة المفاجئة ، التي ظلت منتظرة فترة طويلة ، ومتوقعة في كل لحظة ، ليس فقط منذ قيام اسرائيل ، أي منذ عشرين سنة ، بل قبل ذلك بكثير ، منذ الهجرة اليهودية ، ومنذ الاستيطان المنظم ، ومنذ ظهور الكتابات الصهيونية الاولى التي لم يكن لها الا معنى واحد ، هو القاء العرب الذين يقيمون في فلسطين في سلة المهملات ، بل القاء العرب جميعا في هذه السلة . فلم يكن للعرب خلال الكلمات الكثيرة التي ألقيت في المؤتمرات الصهيونية أي وجود ، لم يكونوا طرفا في النزاع . ولا شك ان هناك صورا من ردود الفعل العربية داخل فلسطين وخارجها ، ولكن الموقف حسم بواسطة الاطراف العليا ، وكانت مشكلة حسمه كامنة في القدرة على التوفيق بين الآراء المتناقضة والمصالح المتعارضة في هذه القوى . أما العرب فلم يدر معهم نقاش على الاطلاق ، وكانت الكلمة النهائية معهم بضع طلقات .

وقد أسفر الاستيطان المتسلل عن استيطان علني ، عن دولة . وتجمعت الجيوش العربية وتفرقت ، وكأنها نجدة قبيلة لا صراع كيانات . وقامت دولة اسرائيل .

ولم تتصور الاطراف المعنية أن تكون لتلك البقعة « المتخلفة » من العالم ، والتي كانت مزقا من الامبراطورية العثمانية المريضة ورثتها أوروبا الفتية ، مقاومة تذكر ، وقد خبر الاستعماران البريطاني والفرنسي وسائل كبح جماح هذه المنطقة . وكان العالم العربي محملا بكل آثار القرون السالفة التي انتهت الى الخلافة العثمانية بكل ما فيها من خير أو شر . ولم تكن أوروبا غازية ومستعمرة وتبحث عن الغنائم فحسب ، بل كانت تمقت هذا « الشرق » مقتا تاريخيا متعصبا . وكانت تفترسه افتراسا .

ولم تنشأ الفكرة الصهيونية الا في ظل هذه الظروف ، في ظل التصفية للدولة الشرقية التي جثمت على أطراف أوروبا وورثت بيزنطه القديمة بثياب شرقية فاقعة .

هنا ظهرت كل الاحلام ، وأصبح في مقدور اليهودي المشرد هو الآخر أن يحلم ، وكان العالم العربي بالنسبة لاوروبا وراء الاسوار ، منفى لمن تلفظه الحضارة الجديدة ، ولا بأس أن يقبل « المشرد » أن ينفي نفسه هنالك . لا بأس أن يكون محطة وصول ، وأن يكون خادم الخان كلما حطت الرحال .

وصحت توقعات « الاطراف المعنية » : لم تكن هناك مقاومة حاسمة ، وجاءت كل الحسابات سليمة .

وكان الفكر العربي في شبه غيبوبة ، كل دولة تبحث لها عن هوية ، وظهرت النزعة الفرعونية في مصر على اثر الاكتشافات الاثرية ، كما ظهرت النزعات الفينيقية والاشورية في غيرها من البلدان العربية . ومن غرائب الصدف أن هذه الاكتشافات لم يقم بها العرب أنفسهم ، بل رجال من أبناء الغزاة ، من « الاطراف المعنية » ، وبصرف النظر عن دلالاتها العلمية فقد وجدنا فيها بطاقة هوية ، وكأننا كنا نبحث عن نسب ضائع .

وحينما قامت اسرائيل كنا منهكين في حركات التحرير من الاستعمار الطارىء ، ومنهكين في التخلف المزري ، والى جانب ذلك كنا مفتونين بالعالم الحديث . وكنا نعيش تحت أسماء كبيرة وهمية نصطنعها اصطناعا تعويضا عما نحسه من نقص بازاء العالم الحديث .

كنا قد نسينا المغامرة المتحدية ، لم نعرف المخاطرة ، ولا السباقات الخطرة ، ولا جنون تحدي الموت ، ذلك الجنون الخلاق الذي لا تعيش بغيره أمة من الامم . كنا كالعجائز نتشبث بحياة مريضة لا طعم لها ، ونخاف الموت في كل خطوة ، ونطلب السلامة في الفكر والعمل .

ولكن انصافا للحق ، كان هذا قدرا تاريخيا ، كان تراكمات عصور من التحلل والتمزق ، لا يقضى عليها بضربة واحدة ، ولا بحيوية جيل واحد .

فمهما تكن طبيعة الامبراطورية العثمانية ، فانها كانت آخر تجمع شرقي ، حين كان العالم يتعامل على أساس انه شرق وغرب ، في مواجهة القوى الفتية ، وهو تجمع يحمل كل ما ورثه من الامبراطورية العباسية القديمة ، تلك الامبراطورية التي انهارت داخليا بعد قرن واحد من قيامها ، ثم ضيعت كل شيء ، وأورثت شعوبها رذائل ليست أقل مما أورثته الامبراطورية الرومانية لشعوبها . وفي الامبراطورية العثمانية ، تبلورت هذه الرذائل واكتسبت اضافات جديدة . وبدافع من حب البقاء حاول تجمع بديل أن يقوم في مصر بقيادة محمد علي ، ولكن الوقت كان قد فات ، وضرب التجمع في أوانه من هذه الاطراف المعنية .

وحين قامت الثورة العربية في العقد الثاني من هذا القرن كانت تنشد الاستقلال عن تركيا لتقع في براثن الاستعمار الاوروبي الجديد ، ولم يكن التفكير العربي يملك القدرة على الرؤية الصحيحة ، كما لم يكن يملك الامكانيات للاستفادة من هذه الرؤية لو أتيحت له .

ومنذ سقوط محمد علي ، وفشل الثورة العربية ، لم يقم تجمع جديد الا في ستينات هذا القرن . أعني انه لم تقم « محاولة » للتجمع الا في ستينات هذا القرن ، عقب ثورة يوليو ١٩٥٢ في مصر والثورات الاخرى المتلاحقة في الوطن العربي ، وقامت ثورة التحرير الجزائرية بدورها الحاسم والدموي والذي كنا نفتقر اليه .

واستفاد التجمع الجديد من ظروف مواتية ، أبرزها تغير خريطة العالم ، وثانيها روح التوثب العربية ، أو ما يمكن أن نسميه بريح الثورة العربية الجديدة ، المصاحبة لعملية الصحو عقب حركات الاستقلال والثورات التي اتخذت طابعا تقدميا .

وكان من الممكن أن نحذر حين يجد التجمع قبولا ، أو لا يجد معارضة حقيقية . فهو تجمع ظهر قبل أوانه ، ولم يستفد من دروس الفشل السابق . وكان من الضروري أن يتم في « لهوجة » ، ودون فكر علمي مخطط وتنظيم حقيقي للجماهير . وبالتالي لم تقم لدينا شبهة في انه الطعم الملقى لنا ، وقد التهمناه بكل بساطة ، وظننا ان في استطاعتنا اذابة كل التناقضات في هذا التجمع . وقبل أن نستطيع الوقوف على أقدامنا ، كنا نتحدث عن الدولة العظمى الموحدة .

وتاه الفكر العربي في الحديث عن الوحدة قبل الاشتراكية أو الاشتراكية قبل الوحدة . وألقيت أسئلة كثيرة من هذا الطراز . وألقيت قضية فلسطين في الظل حتى تتم الوحدة وتقوم الدولة العظمى بتصفية اسرائيل .

وحين نفتش في الفكر الذي طرح نفسه منذ عدوان ١٩٥٦ حتى عدوان ٥ يونيو ١٩٦٧ لا نجد الا أن قضية فلسطين قضية مؤجلة .

وهكـــذا أجل الفلسطينيون دورهم في انتظار قيام الدولة العظمى الموحدة . وكان هناك كلام كثير عن الاشتراكية والمجتمع الصناعي ، وكأن هذا في الامكان وعلى مرمى البصر تقف اسرائيل . لقد ظننا في لحظة من لحظات الخدر التاريخي ان معركة التحرر الوطني قد حسمت ، وان البلاد العربية قد نالت استقلالها ، ولم نستطع أن نرى وجه الشبه بين اسرائيل كقاعدة عسكرية ، وبين السويس مثلا كقاعدة عسكرية قبـــل جلاء الانكليز .

ان معركة التحرر الوطني لم تنته ، ولقد غير الاستعمار مواقفه فقط . وعلينـــا الآن أن نسأل ما هو دور قاعدة السويس القديمة الا الوثوب عنـد اللزوم لـرد الامور الى مـا كانت عليه ، وهو الدور نفسه الذي تلعبه اسرائيل .

وتحت الشعارات الطنانة والدراسات الكثيـرة التي ملأت عشرات الكتب الضخمة لم نلتفت الى الحقيقـــة البسيطة ، وهي ان ثورات التحرير لا تؤجل نفسها . وان حروب التحرير ليست جيوشا مجيشة ، ولا علما عسكريا كلاسيكيا ، لان القـــوة التي تواجهها حرب التحرير قوة أكثر تنظيما بحكم سيطرتها ، وبحكم الاحتياطي الضخم الذي يكمن خلفها الى ما وراء الباسيفيكي . أن حرب التحرير حرب جماهيرية من الدرجة الاولى ، وهو ما لم ندركه ولم نحاول ادراكه ، بل استبدلنا به أحلاما من طراز آخر .

ودون أن نلاحظ ، وكما نقـــول عن أنفسنا ، من منطق تضخيم الذات ، بدونا أمام العالم بصورة مقلوبة : مجموعة من الدول الكبيرة تحاول أن تفترس دويلة صغيرة . ونحن الـــذين أعطينا هذه الصورة المقلوبة لانفسنا . ويبدو اننا أول من صدق نفسه ، ولم يستطع الفكـر العربي أن يسبر أغوار الموقف ، وما زال بيننا من يجادل في ان اسرائيل ثكنة عسكرية للامبريالية العالمية ، ويريد التعامل معها بمعزل عن القوى الكبرى التي وراءها .

ان قضيتنا كما يفهمها رجل الشارع البسيط هي اجلاء القـــوى الدخيلة ، اجلاء الاحتلال العسكري ، تحرير الارض العربية من الاستعمار الصهيوني أو العالمي أو أيا كان اسمه . ولكن هذا ـ على بساطتـه ـ لم يكن مفهوما . وعلى العكس من ذلك كنا نظن اننا نستطيع بالذكـاء الخارق أن نخدع كل الاطراف ، وأن نصدق ان الامبريالية التي تخوض أعنف معركة في تاريخها ستتخـــلى عن الشرق الاوسط تحت ضغوط التغييرات الداخلية والانظمة الجديدة ، ولم تلتفت هذه الانظمـــة التفاتة جدية الى مغزى تحركها في اطار من الحساسية والرهبة مـن اثارة غضب القوى الامبريالية في أخص شؤوننا ، حتى عند تعيين وزير أو موظف كبير في موقع حساس . لقد نفينا بأنفسنا من العمل الوطني ـ لهذا السبب ـ كل العناصر التي قد تحدث قلقا لدى القوى الكبـرى التي تعتبر الشرق الاوسط ملكا حـــلالا لها . وعندما كنا ننشر بعض الكتب الثورية كنا فـــي المقابل ـ ومن أجل هذه الحساسية ـ ننشر الكتب التي تريد ترويجها هذه القوى ، وكان يتم تحت أعيننا تجنيـد بعض العناصر فكريا ـ على الاقل ـ لخدمة المضامين الاجتماعية التـي ترتاح لها هذه القوى ، وكنا نفسر ذلك بنزعتنا الى الحرية والانفتـاح على كل التيارات . وعند لحظة الصدام الحقيقية كنا عراة تماما أمام أعدائنا . وعقب الهزيمة بدأنا نكتشف قليلا اننا شئنا أو أبينا منطقة نفوذ ، وعلى الانظمة الجديدة لكي تتعايش أن تفهم هـــذه الحقيقة وأن تحسب حسابها .

ولعلنا ـ حين بدأنا ننظر الى خريطتنا ـ اكتشفنا اننا كمصـادر ثروة وكخطوة مواصلات حيوية وكموقع استراتيجي فضلا عن كوننـــا سوقا تبادلية ، لم نزل في اطار القوى الامبريالية ، وان جهادنا الحذر ونجاحاتنا المحدودة مرفوضة أيضا على تواضعها .

وخلال عشرين سنة من الوجود الاسرائيلي لم نكسب شبرا واحدا من أرض فلسطين ، وبمراجعة مساحة فلسطين المغتصبة منذ سنـــة ١٩٤٨ حتى الآن نجد الامتدادات التوالية ، قطعة وراء قطعة ، وها هي ذي اسرائيل تمتد الـى خارج فلسطين ، وتضع أصابعها عـــلى اراض شاسعة خارج المساحة التي كنا نتنازع عليها الى سنة ١٩٤٨ !

وعلى الرغم من كل محاولاتنا لتهدئة خواطر الامبريالية العالمية ، فاننا لم نكسب تأييدا واحدا حتى في أتفه الامور . ولم نراجع هـــذه الحقيقة ، لم نتبين حتى الآن ان الانظمة العربية مهما يكن مدى ولائهـا أو مهادنتها للامبريالية فانها غير مأمونة ، لاحتمالات وقوعها تحت تأثير جماهيرها ، وتحت الحاحات الازمات العنيفـــة التي يعيشها مجتمع متخلف كمجتمعنا .

وتستطيع اسرائيل أن تباهي بديمقراطية يرضى عنها ليبراليـو الغرب ، وأن تكون أحزابا ، وأن تسمح بحزب شيوعي ، وأن تشكـــل اتحادا للعمال ، وأن يتشدق بعض أبنائها بأن لهم حرية معارضة السلطة الصهيونية في الحكم الاسرائيلي ، وأن ترتفع بداخلها أصوات تنضـح بالبطولة الكاذبة تدعي العطف على العرب ، بل وتأييد العرب في بعض الاحيان . وقد نجد أصواتا تهاجم الامبريالية الاميركية لا تقل فـــي جهيرها عن تلك الاصـــوات التي نسمعها في أي بلد معاد للاخطبوط الاميركي . ولكن كل هذا مقبول ، ولا يبعث على شيء من القلق لانـه بعد كل ذلك ، وفوق كل ذلك ، يعتمد الوجود الاسرائيلي على الدعـم الامبريالي وسط المحيط العربي . ان تلك الجزيرة الضئيلة لا مكـان لها الا في حضن الامبريالية العالمية ، وهو فهم مشترك ومتبادل بيـن اسرائيل والحركة الصهيونية بشكل عام وبين الامبريالية .

أما المجتمع العربي الذي لا يسمح فيه بصيحة تحرر من أي نوع ، فهو مصدر قلق للامبريالية . ان مجتمعات شيوخ البترول ـ على حـد زعم كاتب صهيوني يدعي التقدمية ـ أكثر اقلاقا للامبريالية الاميركيـة من الحزب الشيوعي الاسرائيلي . ومن المؤسف أن نضطر أحيانا لتنبيه بعض كبار المفكرين الغربيين الى حقـــائق هامة ، وهي ان كبح جماح التقدمية في العالم العربي تشترك فيه قوى الاجهزة الاميركية ، قبـل أن يشترك فيه شيوخ البترول هؤلاء .

ان الجماهير الاسرائيلية مرتبطة في النهايـة بالكيان الاسرائيلي ، بالوجود الاسرائيلي ، وهذا الوجود المحفوف بالمخاطر ـ بلا حماية مـن الامبريالية ـ يجرد كل أشكال النشاطات التقدمية في اسرائيل مـــن حقيقتها ، يجعلها مجرد لافتات تصلح للدعاية ، للتباهي الاسرائيلي عند المقارنة بين المجتمعات العربيـــة « الرجعية » وبين المجتمع الاسرائيلي « التقدمي » .

واني أذكر هنا بالمرارة تجربة غايه في الغرابة والتناقض . فقـد قرأت مقالا منذ عدة شهور في لندن ، لكاتب اسرائيلي عضو في الكنيست كما قال هو عن نفسه ، وشارك في حرب يونيو ، وهاجم بعض التصرفات الاسرائيلية في تقرير نشره على العالم ـ كما يقول ـ خصص مقاله هذا للوم العالم الاشتراكي والاحزاب الشيوعية ـ لانه كشيوعي ـ يجـد نفسه منفيا عن حضور المؤتمرات الشيوعية ، عن الاستماع الـى آرائه ، عن الجلوس معه في مقهى واحد لتناول قدح من البيرة ، انه لا يستطيع أن يتنفس بالاحترام اللائق بمفكر عصري ثوري ، ولا أن يتمشى باطمئنان في سان جرمان أو في سلس أو غيرها من الاحياء الشهيرة ، لانـــه ـ مع كونه شيوعيا ـ منبوذ لانه اسرائيلي . ثم يتباهى بأن اسرائيل مع ذلك ، دولة ديمقراطية ، وانها بجميع المقاييس الحديثة ، وبالمقارنة الى المجتمعات العربية ، دولة تقدمية .

وتأكدت ان أحدا لم يقتنع من قراء هـــذا المقال الذي أفردت له مجلة « نيو ستسمان » التي عرفت للعالم بأنها من المجلات ذات النزعة التقدمية صفحتين كاملتين ، وأبرزت عنوانه في أول الصفحة الاولى . ولكن كيف يرد المواطن العربي ؟ كيف يستطيع أن يعري هذا الزيف ، وهو لن يستطيع أن يدافع عن بعض الانظمـــة العربية التي قدمت في المقال على سبيل المقارنة ؟

انه على العكس من ذلك ، يجد المواطن العربي التقدمي نفســه غريبا كل الغربة ، غير مفهوم على الاطلاق ، حتى بالنسبة لبعض العناصر التقدمية . وقد تحولت في النهاية حرب يونيو الى دفاع عن الوجـود

ـ التتمة على الصفحة ١١٤ ـ

الثورة العربية والفكـر العربي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣ ـ

الاسرائيلي ضـــد التوحش العربي الذي يراد به القـاء اسرائيل فـي البحـر .

ذلك ان حرب التحرير لم تكن واردة . ولا أدري ماذا تعني حرب فيتنام التحررية أقل من القاء القوى العسكرية الاميركية في البحر ، ولا نضال الشعوب ضد الحكم العنصري في روديسيا أو جنوبافريقيا. ماذا تعني مظاهرات الطلبة في أوكيناوا في اليابان الا طرد القـواعد الاميركية ؟

ان حربالتحرير الفلسطينية لا تعني الا ما تعنيه أية حربتحريرية أخرى .

ولماذا قبلت حرب التحرير الجزائرية وقد ألقت بأكثر من تعـداد سكان اسرائيل خارج الجزائر من المستوطنين الفرنسيين ؟

***

حقائق غرقت في المتاهات ،وضاعت بين اقدام الدعاية الاسرائيلية التي ارجو ان انبه الى طابعها العام . فالوجه الذي تظهر به الدعايـة الصهيونية وجه اليسار التقدمي ، الوجه الذي استعار من اليسـار الاوروبي الحقيقي نغمة الحريـــة ، والمضمون الانساني ، وعذابات التضحية في سبيل الوجود الحر . بينما انطلقت ردودنا صفـــراء وباهتة ، لان الذي يتصدى لها عناصر عفى عليها الزمن ، لا تستطيع أن تدرك حتى مغزى الوجود الاسرائيلي . اما معنى الحرية عندها فمعنـى باهت ومتخلف يتفق تماما مع ما تصمنا به اسرائيل . وبكل البساطـة لان المفكر اليساري العربي ، المفكر الذي أنهك كثيرا حتى العجز في وطننا ، منفي ، لانه خطر . ولم نسأل خطر ضد من ؟ خطر ضد النظام العام لتوزيع الثروة ؟ ولكن كيف تكون هذه القضية مطروحة والوطـن العربي مكبل بالاستعباد ؟ استعباد حقيقي ، ينطوي على اعمق معـاني الاذلال . ان الخطر الوحيد الذي يمثله هذا المفكر هو ضد الامبريالية، وضد الاحتلال الاخطبوطي الاسرائيلي . هذا الاحتلال العنصري ، الـذي يمقت بكل الضراوة المتخيلة والذي فكر بكل المقت الذي لـم تعرفـه البشرية الا في الدرامات العنيفة ، ان يقتل ويعذب ويفني وكان علـى اعتاب أن يجرب الحرب البيولوجية ، حرب الاوبئة وحرب الافنـــاء البشري . لكن هذه الفضائح لم تثر . ترددت قليلا ثم طمست .

ولكن ـ لاعتبارات كثيرة ـ أهمها التوجس الاميركي والامبريالي بوجه عام ، من أي فكر تقدمي يطرحه العرب ، ينفى ويشجب ويضرب حتى الهلاك المفكر العرب التقدمي ، فضلا عن ابعاده عـن شرح حقيقـة الوضع في بلاده . وهكذا نحارب في جبهة الدعاية باسلحة فاسـدة مع مصادرة الاسلحة الحقيقة عن عمد .

وبدلا من ان تأخذ الحركة الصهيونية ابعادها الحقيقية كحركـة عنصرية ممالئة بطبيعتها كفكرة عنصرية للامبريالية العالمية ، وممالئـة لها بحكم الوجود والحماية للمصالح الامبريالية ، فضلا عن تحديهـا لابسط مبادىء الشرعية واكثرها بداهة اذ تقوم على ابشعانواع الاحتلال واكثرها قدما وكلاسيكية ، واشدها تناقضا مع الفكر الليبرالي فضـلا عن الفكر اليساري التقدمي . اخذت ابعادا مغايرة تماما ، اصبحـت الواحة المتقدمة والمتطورة وسط صحراء مـــن التخلف الحضـاري والاجتماعي باوسع معانيه ، اصبحت المنارة الوحيدة التي تضيء وسط الظلمة القاحلة . ولم تقع الصهيونية في اسر الخط الواحد ، لم تتجمد عند صورتها الاولى كمطمح لقيادات رجعية تتعامل مع بريطانيا كعميلـة وتتفاهم مع تركيا بالرشوة والتهديد ، بل اصبحت حـركة فكرية ، يستطيع المثقف الغربي ان يجد فيها كل التيارات الحديثة من اقصى اليمين حيث مواقع الفاشية ، الى اقصى اليسار ، كلهم يعزفـون سيمفونية واحدة متعددة الانغام ولكن على آلات مختلفة .

ونتيجة لعشرات الكتابات الصهيونية التي اتخذت جميع الاشكال، لم يعد ممكنا ان يتكلم المثقف العربي عن مأساة اللاجئين ، لنستعمـل اساليب التسول التقليدية فنعري عاهاتنا ونبرزها امام ((الاثريـاء)) لنستجدي شيئا من الشفقة . او عن اسرائيل كاحتلال استيطانـي سافر ، ذلك ان كتاب اسرائيل يعرفون ان اميركا الحديثة قامـت بالطريقة نفسها ، وان العالم عرف في تاريخه ابشع انواع عمليـات التهجير الجماعية على عهد اسبانيا عقب هزيمة العرب . ان الضميـر الاوروبي غني بالآثام وقادر على هضمها ، ولكننا كنا نظن دائما اننـا نخاطب ملائكة .

وحين نتحدث ـ عن طيبة ـ عن مغزى الوطن الذي يقوم علـى العنصرية وعلى وحدة الدين ، نفاجأ بأن اسرائيل ليست السابقـة الوحيدة ، وقد يرد عليك مثقف تقدمي اوروبي بأن العصر الحديـث عرف هذا النوع من الاوطان ، وقد يبتسم ابتسامة مفحمة ويقول لك ما رأيك في باكستان !

وعلى الرغم مما في كل هذا من مغالطات ، فان احـــدا ليس مستعدا ان يستمع لك ، بعد الطنطنة الكثيرة التي اغرقت نفسك فيها في خط واحد ، وفكرة واحدة وهي ادانة العمل غير الانساني الذي قامت به اسرائيل ضد العرب حين اجلتهم عن اراضيهم وشردتهم في الخيام .

ان اوروبا عرفت وقبلت ومارست ما هو ابشع من هذا . والذي يهتز له قلب العالم طربا هو الانتصار ، هو القوة . ومـــا زال مفتاح الحضارة الحديثة وطوطمها المعبود هو القوة ، ويبدو انه سيظل كذلك الى مدى طويل .

ان الطبيعة نفسها تختزل الضعفاء وتنتخب الاقوى ، ان شريعـة التقدم هي في المنافسة والصدام والانتصار . أليس هذا مفهومـا جوهريا للحياة الحديثة دعم بنظريات في البيولوجيا وفـي الفلسفة الاجتماعية !

علينا ان نقبل هذا بكل بساطة او نختزل كاي عيدان هشة زائدة عن الحاجة ، وسنكون مضحكين بالنسبة للعالم لو توقعنا أنيذرف احد علينا دمعة .

ولكننا لم نسأل انفسنا عن القوة .. ما هي القوة .. ؟ الكثيرون منا يتحدثون بتسليم العجائز عن العلم والتكنولوجيا وعـــن الدولة العصرية . ولننتظر دهورا حتى نحقق هذا كله . الا ان الدولة العصرية بكل مظاهرها ليست الا مظهر القوة ، اما القوة ذاتها فلم نتأملهـا . القوة التي جعلت حفنة من العرب البدائيين ـ الى حد ما ـ يفتحـون العالم في صدر الاسلام ، والتي جعلت الجيوش الاوروبية في عصـر الاستعمار الاول تقتحم دولا يعيش فيها مئات الملايين . ليست هـي العقيدة وحدها . فنحن نفعل في ذلك ـ بالنسبة للعقيدة الدينية ـ ما نفعله بالنسبة لكل شيء . الاستجداء .. استجداء الدولة الاقوى ، فاذا عجزنا استجدينا السماء . اننا نتملق السماء ايضا وهو امـر مضحك لم نتبينه ، الان وفجأة تزدحم الجوامع ، الان وفجأة تزخـر اعمدة الصحف بالتدين ، الان وفجأة تمتلىء السماوات العربية بالدعاء والتراتيل . ولعلنا ايضا نعري خزينا وعارنا وعجزنا للسماء كـي ترضى . اما القوة فهي شيء اخر ، ان نتفاهم مع الموت ، ان نألفـه وان ننظر اليه في بعده الحقيقي ، ان نخوضه ، وان نخترقه ، وان نستغل فيه بكل ضراوة حب الحياة ، وحب العظمة الانسانية . ان نرتفع فوق الحيوانية التي الفناها من عصور رخوة كئيبة ، حيـــث نمارس اللذائذ الصغيرة كما يجتر حمل صغير طعامه البائس فيسعادة غامرة . ان نعرف ان الانسان يجب ان يعيش كانسان . وهو ما فعلتـه كل الامم ـ غاصبة او صاحبة رسالة ـ في كل العصور .

ولكن ((حالة)) القوة ظاهرة تاريخية لا تستطيع ان تفرضها مثـل هذه الكلمات . بل لعل هذه الكلمات هي التي فرضتها ((حالة)) القوة.

فبعد ان تشرد الفلسطيني ـ البديل لليهودي التائه القديم ـ في انحاء الارض ، وبعد ان مارس بعض ما مارسه اليهودي القديم ـ على

صفر مدة التشريد ـ جرب المرارة نفسها . نجح في اوروبا واميركا وفي بعض العواصم العربية ، وعاش حياة فردية مثل التي يعيشها المواطنون في ارجاء الارض ، بل ربما وفق الى احسن منها كثيرا . ولكنه لم يجد في النهاية الا المرارة . اكتشف ان الشبع والزهو المادي لم يكن الا سرابا . وها هوذا يقابل بالاستهانة ، وبابتسامات خبيثة مؤدبة ، تنطوي على احتقاره كعنصر بشري . وعلى الرغم من انه لم يكن مسئولا عن كل ما حدث ، فان العالم كله يتلذذ بمضغ ضعفه.وبعد يونيو انضم الى المشرد الفلسطيني كل العرب ، اصبح العربي بشكل عام هو المشرد حتى في وطنه ، ويكاد العربي يجد في قلب كل انسان خارج الوطن العربي منفى ، حيا للمنبوذين ، جيتو غربيا ، يزيحه اليه كلما اتصل بينهما حديث .

وفي الوقت نفسه كان العالم قد شبع من اللذائذ الصغيرة،فقدت الحياة معناها في ظل الضياع الفردي والاجتماعي الذي يعيشه المثقف في كل الاوطان . وظهر ادب الاحتجاج ولمعت كلمات جديدة عن الاغتراب والعزلة ، تجاه الانظمة الفولية التي سدت جميع المنافذ ، وقوقعت العالم داخل قالب محكم من علم السيطرة على الشعوب والافراد . وقامت الجزائر وكوبا وفييتنام بتحويل التمرد الفلسفي او الفكري الى تمرد حيوي ، وقام مفكرون جدد يبحثون عن الخلاص الروحي بالمدفع . ووقف شي جيفارا العظيم نبيا لكل المشردين ولكل الضائعين ، واعطى للموت الجليل معناه الحقيقي ، واعطى للحياة الذليلة معناها ايضا .

واستطاع التفاهم مع الموت ان يقهر العلم والتكنولوجيا والدولة العصرية ، او على الاصح قد كشف عن ان هذه المسميات الساحرة ، لا يصنعها الا التفاهم مع الموت ، ومن قلب نضال الفلاحين السذج في الصين صنعت القنبلة الهيدروجينية والصواريخ عابرة القارات في اقل من عشرين سنة ، واستطاع الفلاح الفيتنامي ان يصمد وان يقهر بالتفاهم مع الموت كل المسميات الحديثة ، ثم ان يصنعها وان يفهمها وتفهمه وان يطوعها لنفسه .

ومع ذلك فالقضية التي يصارع من اجلها الفيتناميون والكوبيون، على شرفها ، لا تتساوى مع القضية التي يناضل من اجلها العرب. ان الامبريالية لا تريد روح الشعوب التي تحاربها ، بل اموالها وعروضها. اما الصهيونية فتريد وطنا خالصا مطهرا حتى من اثر اي عربي . ان اعتى القواعد العسكرية الاميركية او الانجليزية ، طارئة ومؤقتة ، اما الاستيطان الاسرائيلي فيريد ازاحة تاريخ باكمله ليبني على الاساطير تاريخا اخر . والذي انكسر في حرب يونيو ليست الاوطان ، بل التراث الانساني والروحي للعربي ، الشخصية الانسانية للعربي ..

وللاسف لم يكن الفكر العربي مدركا لكل هذه الابعاد ، اما فكر التمرد الحديث والثورة الدموية ، فهو الذي غزانا وافاقنا من سباتنا. اصبحت كتابات الثوار « الرومانسيين » من امثال جيفارا هي العامل المنبه ، واصبح نماذج البطولات الثورية في الجزائر وكوبا وفيتنام مثلا حيا . كما اصبح تاريخ الابطال الاول للثورات الاشتراكية الحديثة منارة وعامل حض واثارة . واخيرا الكتابات الغربية الحديثة ذاتها التي عكست ما في العالم من فراغ وضياع لفقدانه للمغزى الروحي .

وهكذا حمل الفلسطيني الذي كان يدرس او يعمل ويحلم احلام البورجوازية الصغيرة حقيبته وذهب الى فلسطين ، قاتلا او مقتولا . وكل تراثه من الفكر هو ما طرحه الانبياء المحدثون .

ورجلا وراء رجل ، واصبحت للفلسطيني كرامة ، اصبح موجودا، اصبح حقيقة ، وبدت الدهشة على الجميع . وعقب الهزيمة ازدادت الصورة وضوحا ، وصار الوجود العربي كله ماثلا في الحركة الفدائية، في حرب التحرير العربية .

ومن ثم بدأ الكتاب العرب اقتناص الصورة الغائبة ، بدأ المفكرون العرب يكتشفون انهم ما زالوا قادرين على التفكير . ومع الخطوات الاولى لحركة التحرير الفلسطينية خطا الفكر العربي خطواته الاولى . وعما قليل سيولد فكر عربي جديد هو وليد للعمل الفدائي . ومن جديد عدلت الصورة ، واصبح من قلب الواقع المحتدم يولد الفكر ، وكنا لسنين طويلة نريد ان نفرض الكلمات والافكار على الواقع المغاير .

كنا نتحدث عن الوحدة العربية ، ونكثر من النقاش ، ونقدم من الادلة كل ما نستطيع ابتداعه ، ولكن شيئا من هذا لم يتحقق ، لان العمل يسبق الفكر ، والفكر حين يسبق العمل يصبح سفسطة .

الان نستطيع ان نتحدث عن وحدة العمل الفدائي ، عن وحدة حركة التحرير ، لان من يريد الوحدة في العمل الفدائي يستطيع ان يحمل سلاحه ويذهب بلا نقاش وبلا جدل طويل او قصير . وفي ساحة الفداء تستعيد الافكار صوابها ، وتقوم كل الاجسام على قواعدها الصحيحة .

وعندما انغمسنا في العمل اختفت الاساطير ، وينبغي ان تختفي، واختفت العنجهية والغرور والادعاء . وكلما اقتربنا من العمل اقتربنا من الواقع ، اقتربنا من الانسان الجوهر البسيط المتواضع ، واقتربنا من الفكر الصحيح . ولعله قد آن الاوان ان نفكر ونحن نتحرك،ونتحرك ونحن نفكر . وبالتالي علينا الا نترك لاية قوة ان تجتذبنا الى المناطق الوهمية .

فنحن مثلا لا نريد او يجب الا نريد لحركة التحرير الفلسطينية ان تبدو اكثر من حقيقتها ، ولا ان نسمح لاحد ان يجرنا الى هذا . وعلى العكس من ذلك من الافضل ان نبدو اقل من حقيقتنا ، فنحن شعب ـ للكثير من الاسباب ـ نستمرىء التفاخر ، ونميل الى المبالغة، وتكاد العاطفة الفاقعة القصيرة النفس تستولي علينا . وقد يأتي المناضل من اقاصي الارض ليحمل بندقيته ، مأزوما ، مصمما ، مدركا ان حياته لا مغزى لها بغير انتصار حقيقي ، فتتلقفه اقلام العاجزين ، الذين يظنون انهم كلما بالغوا في التمجيد ادوا ما عليهم من واجب ، ورفعوا ما عليهم من عجز ، وشيئا فشيئا ننتصر على الورق قبل ان ننتصر في الحقيقة والواقع .

الواقع انه لم يبق لنا الا التبتل ، ان ننصهر في الكفاح انصهار عابد متنسك ، شديد النسك ، فكم أثمنا في حق أنفسنا، ولن نستطيع ان نتطهر الا بمزيد من الدماء ، ومزيد من الالام الايجابية ، آلام قهر الذات قبل قهر العدو ، آلام الدربة على التواضع ، واعادة ضبط الكلام على حجم الوقائع . ثم كراهية الخلي الذي يتغنى بفضائلنا ، ونحن نعلم أننا بلا فضائل ما دمنا لم نخلص ارواحنا من ربقة الاستعباد .

لهذا اتوجس خيفة حين ارى صحف الامبريالية تحتفي بنا او ببعض رجالنا ، واتوجس خيفة حين نحتفي نحن ايضا بابطالنا ونفرقهم معنا في فقاعات الظهور والتغني بالامجاد ، ثم المناقشات العقيمة !

وبعد هذا علينا ان نحدد بالصرامة نفسها مواقعنا بالنسبة لكل القوى المحيطة ونتعلم كيف نكسبها او نحذرها . ومن حسن الحظ ان للامبريالية اعداء كثيرين ، ولثورة التحرير العالمية ابعادا ، وللعمل السياسي علما وخبرات ، ولا اظن ان شيئا من هذا يفوت مناضل بيت النية على النصر .

واخشى ان اقول انه لم يبق لهذا الجيل الا ان تنتصر حركة التحرير الفدائية ، أن تتوهج ، وأن تزداد جماهيرية ، وأن تتجه كل القوى ، وكل الافكار الى حماية ودعم الحركة الفدائية . ولقد بدأت هذه المعاني تتضح في اذهاننا جميعا ، وعما قريب يتحول العالم العربي الى ارضية متعددة الاعماق تحتضن حركة التحرير ، ومن خلال العمل وحده سنكتشف الطرق التي تؤدي الى تنظيم كل شيء ، وفي مقدمة ذلك تنظيم الفكر نفسه .

ومن هنا فان اثر حركة التحرير الفدائية على الفكر العربي سيكون بالغ الخطورة ، سيكون تأثيرا حضاريا يلمس الحياة الفكرية والروحية في كل جانب من جوانبها ، وسيوجد فن جديد ، وفكر جديد ، لانه يبني لاول مرة في تاريخنا الحديث على ارض صلبة من الاصطدام الخطر ، والدماء الزكية المراقة .

ويبدو انه منذ اليوم ستستعيد الكلمات فاعليتها ، وتعود اليها خطورتها ان صادقة او كاذبة ، وسيصبح القتال في كل الميادين له خطره ومسئوليته ، حتى في ميدان الكلمة .

احمد عباس صالح